حاضرة بجاية ودورها في تطور الحركة الصوفية بالمغرب العربي من خلال كتاب "عنوان الدراية"

د. عبد الحميد هيمة

جامعة ورقلة

1-مدخل عام: (التعريف بمدينة بجاية الناصرية)[1]

إن الحديث عن دور بجاية في تطور الحركة الصوفية بالمغرب العربي بشكل خاص ودورها الثقافي بشكل عام حديث قد يتشعب ويطول نظرًا للإسهامات الكبيرة لهذه المدينة في المجال العلمي والثقافي، مما جعلها تتحول عبر الزمن إلى مركز للإشعاع الثقافي ليس فقط في نطاق المغرب بل تعدته إلى الأندلس والمشرق والأمر نفسه يقال عن مدينة القيروان وتلمسان وفاس وقسنطينة ومراكش، وما مدينة بجاية إلا واحدة من هذه المراكز الثقافية التي تبرز مساهمة الجزائر والمغرب العربي في نشر الحضارة الإسلامية، وقبل أن نلج في الموضوع لا بد أن نعرف شيئًا عن هذه المدينة التي كانت من أعظم المراكز في عهد الدولة الحمادية، ولعل ذلك يعود إلى احتفاء الحماديين بالعلماء ورعايتهم للعلم حيث أنهم جلبوا "الكثير من عباقرة تونس والأندلس والشام والحجاز والعراق وصقلية والعجم، فتقاطروا على (القلعة) و(بجاية) والعواصم العلمية الأخرى، فاستفاد الشعب من علومهم وثقافتهم اللامعة، فبلغ من إقبال الناس على العلم أنه كان يجتمع مع الأستاذ الواحد ما يزيد على مائة طالب ... فنبغ في عهد بني حماد علماء مبرزون وظهر مؤلفون متعمقون في مختلف العلوم".[2]

ولننصت للشاعر أبي علي حسن بن الفكون القسنطيني يصف بجاية (الناصرية):

دع العراق وبغداد وشامهما فالناصرية ما إن مثلُها بلدُ

بر وبحر وموج للعيون به مسارحُ بان عنها الهم والنكدُ

حيث الهوى والهواء الطلق مجتمع حيث الغنى والمنى والعيشةُ الرغدُ

والنهر كالصل والجنات مشرفة والنهر والبحر كالمرآة وهو يدُ

فحيثما نظرتَ راقت وكل نوا حي الدار للفكر للابصار تتقدُ

إن تنظر البر فالأزهار يانعة أو تنظر البحر فالأمواج تطردُ

يا طالبًا وصفها إن كنت ذا نصف قل جنةَ الخلد فيها الأهل والولدُ(3)

وبجاية: بكسر الباء وفتح الجيم مدينة بشاطئ البحر كانت تابعة لإقليم قسنطينة، بنيت على شكل مدرج فوق المنحدرات السفلية بجبل قوراية يذكر فيرود (Feraud) أن "بجاية ربوة وفوقها قورايا (أي جبل باللغة الوندالية) وهي حصن قديم وفيها طرق عدة إلى الجبل، وتبدو المدينة في سفحه كأنها بحيرة تحيط بها الجبال"(4)، و يقول الادريسي في كتابه "نزهة المشتاق" في وصفها: "بجاية في وقتنا هذا (548هـ) مدينة المغرب الأوسط، وعين بلاد بني حماد والسفن إليها مقلعة وأهلها مياسر تجار، وقد أسقط الناصر عنهم الخراج فأثروا"(5)، وبها القوافل منحطة والأمتعة إليها برًا وبحرًا مجلوبة والبضائع نافقة، وبها من الصناعات ما ليس بكثير من البلاد، وأهلها يجالسون تجار المغرب الأقصى، وتجار الصحراء، وتجار المشرق، وبها تباع البضائع بالأموال المقنطرة، وبها الحنطة والشعير والفواكه ما يكفي لكثر من البلاد، وبها دار صناعة لإنشاء السفن والأساطيل والمراكب، وبها معادن الحديد، وبها الصناعات(6).

وكلمة بجاية اسم أطلق على المدينة في تاريخ غير محدد، يقول عبد الرحمن ابن خلدون في تاريخه: "إن موقع بجاية كان قرية تسكنها قبيلة بربرية تسمى بجاية أو بقاية (بقاف معقودة) فأطلق هذا الاسم على المدينة وسميت به"(7)، ومدينة بجاية مدينة قديمة من الناحية التاريخية عرفت باسم سلديا أو سلداي في عهد القرطاجيين حوالي القرن الثامن قبل الميلاد، ثم استولى عليها الرومان فالوندال وفي حوالي سنة 708م فتحها المسلمون وبسطوا نفوذهم عليها، وقد تبوأت بجاية مكانة مرموقة في عهد بني حماد حيث أعاد الناصر الحمادي بناءها سنة 460هـ 1067م وسماها الناصرية نسبة إليه إلا أن الأهالي ضلوا يطلقون عليها اسم بجاية، وفي عام 1091م جعلها المنصور عاصمة لدولته بعد هزيمته على يد الهلاليين بالقلعة(8).

ولقد ازدهرت مدينة بجاية في عهد المنصور ازدهارًا كبيرا حيث نعمت بالرخاء والازدهار الاقتصادي والتجاري، فكما كان الناصر من أعظم ملوك إفريقيا كانت بجاية من أعظم مدنها، وقد بقي بها قصر اللؤلؤة الذي يقول فيه ابن خلدون بأنه "من أعجب قصور الدنيا، وقد بنى الناصر فيها المباني العجيبة المونقة وشيد المدارس العظيمة"(9).

وظلت بجاية تحتل هذه المكانة في مختلف العصور بدءًا بالعهد الحمادي (405هـ-547هـ) وفي عصر الموحدين (547هـ-626هـ) ثم في عهد الدولة الحفصية على الرغم من كثرة الاضطرابات السياسية التي شهدها المغرب.

كما ازدهرت الثقافة ازدهارا كبيرا، وفي هذا المجال نورد بعض الأدلة والأمثلة التي تثبت ذلك.

1-ازدهار التعليم بالمدينة وتخرج الكثير من العظماء بمدارسها كما هي الحال بالنسبة لعبد المؤمن بن علي مؤسس دولة الموحدين والذي قدم إلى مدينة بجاية وتعلم بها واجتمع بمحمد بن تومرت بعد رجوعه من المشرق(10)، إن هذه المدرسة (أي بجاية) التي تخرج منها هذا الرجل العظيم جديرة أن تكون في مصاف المدارس العالية، وإن دولة كونت هذه الحركة العلمية جديرة أن تتصدر الدول المعاصرة لها وتفتخر بها الجزائر وتتباهى بها(11).

2-الدور الكبير الذي قامت به بجاية في نشر المذهب المالكي "فقد ذكر أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم الورجلاني الذي تخرج من قرطبة في دولة الموحدين يقول في الجزء الثالث من كتابه (الدليل والبرهان) أن الإمام يحي بن يحي الليثي ويحي بن بكير ومعهما جماعة من العلماء قاموا بالمجهودات الكبيرة في نشر مذهب الإمام مالك بالأندلس ولكن لم يتمكن المذهب من الانتشار ويعم الأندلس حتى جاء علماء بجاية فتمكن من الانتشار والاستقرار بما بذلوه من المجهودات"(12).

3-دور بجاية في نشر اللغة العربية، فعلى الرغم من أن دولة بني حماد كانت دولة بربرية صرفة (قبيلة صنهاجة) إلا أن هذه الدولة كانت في جميع نظمها ودواوينها ومدارسها تعتمد على اللغة العربية، فهي اللغة الرسمية للدولة(13).

4-ازدهار ورواج سوق الأدب والشعر وخاصة في مجال التصوف كما سنرى لاحقًا، وكتاب (عنوان الدراية) أكبر دليل على نشاط حركة التصوف والشعر الصوفي بهذه المدينة خاصة في القرنين السادس والسابع الهجري.

2-التعريف بكتاب "عنوان الدراية" لأبي العباس أحمد بن أحمد الغبريني (644هـ -704هـ):

تعود شهرة أبي العباس الغبريني(14) منذ القديم إلى كتابه "عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية" والكتاب مرجع هام لكتّاب التراجم ولمؤرخي الأدب وهو يعد بحق أثرًا علميا نفيسا يكشف لنا عن الازدهار العلمي والأدبي الذي تميزت به مدينة بجاية في القرنين السادس والسابع، فهو مصدر أساسي للحركة الثقافية ببجاية والقطر الجزائري عامة، وهو كما أشرنا مرجع لا يستغني عنه كل دارس سواء أكان مؤرخا أو باحثا اجتماعيا.

أما تاريخ الشروع في تأليف الكتاب فقد أشار إليه المؤلف في مقدمة كتابه حيث قال: "وإني رأيت أن أذكر في هذا التقييد من عرف من العلماء ببجاية في هذه المائة السابعة التي نحن في بقية العشر الذي

هو خاتمتها ختمها الله بالخيرات ... أذكر منهم من اشتهر ذكره، ونبل قدره وظهرت جلالته، وعرفت مرتبته في العلم ومكانته"(15).

ويمكن أن نصنف هذه التراجم التي ذكرها الغبريني والتي بلغ عددها 149 ترجمة كما يأتي:

1) تراجم البجائيين والجزائريين من وهران ومليانة وسطيف وقسنطينة والقلعةوغيرها، منهم أبو العباس أحمد بن عثمان المليانى، والشاعر حسن بن الفكون القسنطيني، وعبد الله بن محمد القلعي، وعبد الحق بن يوسف الغبريني.

2) تراجم الوافدين على بجاية من الأندلس والقيروان وهم كثيرون نذكر منهم:

1-عز الدولة بن صمادح وكان من أمراء الأندلس وملوك الطوائف ولما خلعه يوسف بن تاشفين عن إمارته التحق ببجاية حوالي سنة 488هـ وكان أديبا وشاعر.

2-منهم الصوفي الكبير أبو مدين الذي استقر ببجاية في منتصف القرن الخامس.

3-ومنهم كذلك المحدث الكبير عبد الحق الإشبيلي الذي نزل ببجاية ونشر بها علمه وكان صديقا لأبي مدين، توفي أواخر القرن السادس.

-الحركة الصوفية ببجاية من خلال عنوان الدراية:

الدارس للتصوف الإسلامي عمومًا والشعر الصوفي خصوصا يلحظ أن الحركة الصوفية في المغرب لم تحظ بالدراسة الكافية كما هو الشأن بالنسبة للتصوف في المشرق، والقليل الذي كتب عنها نجده مفرقًا في كتب عدة فضلاً عن أنه قليل ولا يسد حاجة الباحث في التعرف على التصوف المغربي القديم، لأن اهتمام النقاد ظل مشدوداً إلى التصوف المشرقي حيث ألفت فيه دراسات كثيرة لا تحصى تناولت سير أعلامه ونتاجهم المعرفي والإبداعي، ولذلك فإن موضوع التصوف بالمغرب لا يزال حقلاً بكراً يحتاج إلى الدراسة والتحليل لكشف سماته وخصائصه.

والحق أن المغرب العربي بصفة عامة شهد ككل البلدان العربية "حركات تزهد ونسك عديدة، ففي الوقت الذي كان فيه الحسن البصري المتوفى عام (110هـ /720م) ينزع في سلوكه إلى حياة روحية خالصة، ويتخذ من الطقس الديني طريق معرفة وكشف نجد في القيروان –والتي كان لها فضل الريادة في تخريج مبدعين في الشعر المغربي باللغة العربية-(16) اسماعيل بن عبيد (المتوفي عام 107هـ/717م) يوغل في التبتل لابسًا جبة من صوف وكساء من صوف ... ونجد أبا محمد خالد بن عمران التجيبي (المتوفي عام 127هـ/727م) يهرب من الثروة والقضاء حتى الاسكندرية ... ونجد أبا يزيد بن رباح بن يزيد كلما دخل

الشتاء أخذ في البكاء رحمة للفقراء"(17) هؤلاء الزهاد انتشروا في المغرب العربي منذ الفتح الإسلامي، وتوفرت ظروف عدة ساعدت على انتشار الحركة الزهدية التي تطورت فيما بعد إلى تصوف خاصة في بجاية في القرن السابع الهجري، وكتاب "عنوان الدراية" يذكر لنا أسماء كثيرة من المتصوفة لا يمكن إحصاؤها ويعطينا نماذج من أشعارهم ومؤلفاتهم الصوفية العديدة، التي أثرت في معاصريهم وفي من جاء بعدهم، كما هو الشأن عند عبد الرحمن الوغليسي البجائي (توفي عام 786هـ) الذي تتلمذ على يده وعلى تلاميذه رجال كثر منهم محمد الهواري والثعالبي وعيسى بن سلامة البسكري، وقد تكونت مدرسة أخذت اسم الوغليسي وهي (الوغليسية) التي امتد أثرها حتى شمل البلاد كلها(18).

ومن الذين ساهموا في تغذية هذا التيار أحمد بن عبد الرحمن النقاوسي البجائي(19) بكتابه المسمى "الأنوار المنبلجة من أسرار المنفرجة"، والقصيدة المشهورة (بالمنفرجة) هي التي قالها يوسف بن محمد بن يوسف المعروف بابن النحوي التوزري الحمادي وقد سميت كذلك لوقوع الانفراج بها كما قيل عنها، أو لاحتوائها على كلمة (تنفرج) في مطلعها وهو:

اشتدي أزمة تنفرجي قد آذن صبحك بالبلج

وهي تعد من القصائد التي تجمع بين الأدب والتصوف، وهذا هو الذي جعل النقاوسي يقوم بشرحها شرحًا واسعًا، وهو أيضا الذي جعل بعض الباحثين يضعها في باب الأدعية والأذكار، ... ومهما يكن الأمر فإن النقاوسي قد ساهم بشرحه للمنفرجة في دفع تيار التصوف الذي كان معاصرًا له وسابقًا فيه(20).

-شعراء التصوف ببجاية:

القارئ لكتاب "عنوان الدراية" يخلص إلى نتيجة هامة تتعلق بشعر التصوف ببجاية، وهي كثرة الشعراء في هذا المجال بقسميه السني والفلسفي، ونعني بالأول التصوف الذي سار متقيدًا بالقرآن والسنة النبوية، والاهتمام بالتعبد والزهد والتخلق بالأخلاق الحميدة، ويمثل هذا الاتجاه ابن النحوي في العصر الحمادي، وأبو مدين ، وأبو زكريا الزواوي وغيرهم في العصر الموحدي، وكانت منابع دراساتهم (قوت القلوب) لابن طالب المكي، ورسالة (القشيري)، و(إحياء علوم الدين) للغزالي(21)، ومن هؤلاء نذكر:

1-أبو مدين شعيب بن الحسين الأندلسي (المتوفي سنة 594هـ) جعله الغبريني في مستهل كتابه "عنوان الدراية" ومما جاء في ترجمته أنه "الشيخ الفقيه، المحقق، الواصل، القطب شيخ مشايخ الإسلام، في عصره إمام العباد والزهاد وخاصة الخلصاء من فضلاء العباد، ... فتح الله عليه بمواهب قلبية، وأسرار ربانية استفادها بالتوجه والعمل، وارتقى إلى غاية ما يؤمل"(22) اشتهر أمره ببجاية التي أقام بها في أواخر حياته- كان يقول عنها إنها معينة على طلب الحال- كثر عليه الناس وظهرت على يده كرامات مما جعل بعض

العلماء يشون به عند يعقوب المنصور (580- 595هـ) أحد خلفاء دولة الموحدين وذكروا له خوفهم منه على دولة الموحدين لأن له شبها بالإمام المهدي، كما أن أتباعه كثيرون في كل بلد، فكتب لصاحب بجاية يطلب منه أن يرسله إليه، وأوصاه بالاعتناء به، وأن يحمله له خير محمل، ولما كان الشيخ أبو مدين بالطريق مرض ومات قرب تلمسان ودفن برابطة العباد سنة 594هـ(23).

2-أبو محمد عبد الحق بن ربيع بن أحمد بن عمر الأنصاري البجائي (المتوفي عام 675هـ)، وهو الشيخ الفقيه الإمام العالم المحصل المحقق المجيد الصوفي المجتهد، ولد ببجاية وقرأ بها ولقي المشايخ، وكان رحمه الله روح بلده ومصره وواسطة نظام أهل زمانه وعصره، كان يحمل فنونًا من العلم والفقه وأصول الدين وأصول الفقه والمنطق والتصوف، والكتابتان؛ الشرعية والأدبية، والفرائض والحساب، وكانت له رحمه الله أخلاق حسنة وخصال حميدة، يقول الغبريني: "كان القاضي على القضاة بالحقيقة؛ لأن مرجع أمرهم إنما كان إليه ... وسمعت عن الفقيه أبي المطرف بن عميرة أنه قال: أما الكتابة الأدبية فنحن فيها وإياه على نسق وأما الشرعية فقد انفرد بها عن الناس، ولولا الإطالة لذكرت من كتابته الأدبية والشرعية، ومن طرائف أخباره وملح آثاره مما رأيت وشاهدت ما تصغي له الآذان ويسعد به الفؤاد والجنان"(24). نظم في الشعر الصوفي الكثير من القصائد منها الرائية المشهورة التي نظمها في فترة تتلمذه على الشيخ أبي الحسن الحرالي، وكانت في نحو 500 بيت منها قوله:

سَفَرتْ على وجْهِ الجَميل فأسْفَرَا وبدَا هِلالُ الحُسْنِ منها مُقْمِرَا

ودنَتْ فكاشفَتِ القلوبَ بسرِّهَا وسقتْ شراب الأُنْسِ منها كوْثَرَا

ورأيتها في كل شيءٍ أبْصَرتْ عيناي حتى عُدْتُ كُلِّي مُبْصرَا

وسمِعْتُ نطق الناطقين فكلهم بالحمد والتسبيح عنها أَخْبرَا

وبها ركبتُ زواخِرًا من حبِّها ولبِستُ سِرَّ السِّرِّ ثوبًا آخرا

وبها فنيتُ عن الفناءِ وغُصْتُ في ماءِ الحياةِ مُسَرْمدًا ومُدَهَّرَا(25)

ويصف الغبريني هذه القصيدة فيقول: "وهذه القصيدة حسنة المعنى، قدسية المبنى ... سمعت كثيرًا من أهل العلم يثنون عليه، ويقولون إنه لم يكن في وقته بمغربنا الأوسط مثله، توفي رحمه الله في الثامن والعشرين لربيع الأول من عام خمسة وسبعين وستمائة ودفن بخارج باب المرسى وكان له مشهد لا يكون إلا لمثله، وتاريخ وفاته في رخامة وضعت لحدًا على قبره وكتب فيها بيتان هما من نظم الأديب الفاضل أبي نصر الجيني:

بكيتكَ عبد الحقِّ حقًا لأنني بكيت بك الدنيا وما في جميعها

من الدين والإفضال والعلم والحجَا وإن كنْتَ زيْنَ الدين يا ابن ربيعِها"(26)

أما التصوف الفلسفي فيمثله كل من ابن عربي، وابن سبعين والششتري الذين مروا ببجاية وأقاموا بها، وأثروا في أعلامها ويعد أبو الحسن علي بن أحمد الحرالي التجيبي (توفي عام 638هـ) أكبر صوفي فيلسوف، وقد ترك أثرًا كبيرًا في مدينتي بجاية وتلمسان، وتعدى أثره إلى المشرق العربي، ولهذا الشاعر آراء عدة في المعرفة أشار إليها في أشعاره(27) من ذلك قوله:

كلما رُمْتُ بذاتي وصلة صار لي العقل مع العِلم جَلَمُ

يقطعاني بخيالات القَنا عن وجودٍ لم يقيَّد بِعَدَمْ

يقول الغبريني: "له التآليف الحسنة، وله الشعر الفائق الرائق غزلاً وتصوفًا، وله في علم الفرائض ما لم يسبق إليه، وأما علم التصوف فهو فيه الإمام، وله التآليف الحسنة فيه البينة السهلة وبالجملة فحيث تكلم في علم يعتقد الناظر فيه أنه لا يعرف غيره، وأكثر كلامه إنما هو إصلاح لحال العلم وحال العلماء ... وما من علم إلا وله فيه تصنيف وتأليف، وهو من أحسن التصانيف وأجل التآليف"(28).

ومن تلامذة أبي الحسن الحرالي نذكر أبو محمد عبد الحق بن ربيع بن أحمد بن عمر الأنصاري البجائي (المتوفي عام 675هـ) ومن شعره في التصوف الفلسفي نذكر قوله في الحقيقة:

سفرتْ على وجْهِ الجميلِ فأسفرا وبدا هلالُ الحسنِ منها مقْمِرَا

ودنَتْ فكاشفتِ القلوبَ بسرِّها وسقتْ شراب الأُنسِ فيها كوْثرا

ورأيتها في كل شيءٍ أبصَرتْ عيناي حتّى عُدْتُ كُلِّي مبصرَا

وهذه الأبيات من قصيدة طويلة ذكرها الغبريني في "عنوان الدراية"، وقال إنها بلغت نحو خمسمائة بيت، وهي حسنة المعنى قدسية المبنى(29)، كما أشار إلى أخلاقه العالية، وتعففه وامتناعه عن تولي منصب القضاء، "وقد سمعت [والكلام للغبريني] كثيرًا من أهل العلم يثنون عليه، ويقولون إنه لم يكن في وقته بمغربنا الأوسط مثله"(30).

ومن شعراء التصوف الفلسفي كذلك نذكر أبو زكرياء يحي بن محجوبة القرشي السطيفي (المتوفي 677هـ) وكان شاعرًا صوفيًا من تلاميذ الحرالي، ومن شعره قوله:

جَلَّتْ لكَ لَيْلى مِنْ مثَنَّى نِقَابِهَا طريقًا وأبدتْ لمعَةً مِنْ جَمالِها

فَطِبْتَ بِهَا عيشًا وتِهْتَ لذَاذَةً وفيَّأكَ الإلْماعُ بَرْد ظِلالِها

فكيف ترى ليلى إذا هي أسفَرتْ ضُحَاءً وأبدتْ وارفًا من دَلالِها

وكيف يكون الأمر إن أنت كنتها وكانتكَ تحقيقًا فَحُلْتَ لِحَالِها(31)

والملاحظ أن الشاعر في هذا النص يعمد إلى توظيف الرمز للتعبير عن الحقيقة الإلهية، والأحوال الروحية والرياضات النفسية التي يعانيها، لأن اللغة العادية تعجز عن نقل هذه الأحوال "فكلما اتسعت الرؤيا ضاقت العبارة" كما يقول المتصوفة، ... ولذلك لجأ الصوفية إلى لغة الرمز والإشارة يعبرون بها عما يشاهدونه في تلك الأحوال من الحقائق التي لا تدرك بالعقل، وإنما تعرف بالتأمل الباطني عن طريق القلب الذي هو محل المعرفة عند المتصوفة. وهذه المعرفة لا تتم مادام العارف واعيًا أناه بوصفها خارجًا أو ظاهرًا، فلا يدرك الوجود حقا إلا بتجاوز هذه الأنا وزوال الوعي بها وعند ذاك يبلغ الصوفي حال الفناء(32) وبالفناء يتم الاتحاد بين الذات والموضوع كما يبدو في قوله:

وكيف يكون الأمر إن أنت كنتها وكانتك تحقيقًا فَحُلْتَ لِحَالِهَا

وهذا يذكرنا بالحلاج وشطحاته التي تعبر عن حال "الفناء"، من ذلك قوله:

أنا ومن أهوى أنا نحن روحان حللنا بدنًا

فإذا أبصرتني أبصرته وإذا أبصرته أبصرتنا(33)

هؤلاء إذن بعض أعلام التصوف الذين عرفوا ببجاية كما جاء في كتاب "عنوان الدراية" للغريني.

وما نستخلصه من قراءتنا لهذا الكتاب وغيره من الكتب التي تعرضت للتصوف بالمغرب العربي عامة هو كثرة المتصوفة سواء كانوا كتابًا أو شعراء، وكذلك المكانة الرفيعة التي احتلها التصوف في المغرب العربي، وفي مدينة بجاية ثم النشاط الكبير للحركة الصوفية بنوعيها السني (الأخلاقي) والفلسفي حتى أن الكثير من المدن عندنا في الجزائر مثلاً عرفت بأسماء بعض أعلام التصوف كمدينة الجزائر التي تعرف باسم الثعالبي، فيقال مدينة سيدي الثعالبي، ووهران تنسب إلى سيدي الهواري، وتلمسان إلى سيدي بومدين، وقسنطينة إلى سيدي راشد، وهذا يكشف لنا عن قوة تأثير التصوف في حياة الناس الثقافية والعامة، ولعل هذا النشاط الكبير لحركة التصوف ببجاية يعود إلى هجرة الكثير من العلماء إليها، وخاصة من الأندلسيين وأهل القيروان، وقد ذكر المقري في نفح الطيب جماعة كبيرة ممن هاجر إلى المغرب والمشرق من أهل الأندلس، فقال: "اعلم ... أن حصر أهل الارتحال لا يمكن بوجه ولا حال ولا يعلم ذلك على الإحاطة إلا علاّم الغيوب"(34). وهذا لكثرتهم، وقد ذكر بعضهم أبو العباس الغبريني في كتابه "عنوان الدراية" وترجم للكثير منهم على اختلاف علومهم ومعارفهم، وكما يقال "مصائب قوم عند قوم فوائد" فقد كان لسقوط

الأندلس دور كبير في ازدهار الحياة الثقافية والعلمية بالمغرب وبروز أسماء عدة حواضر من بينها مدينة بجاية (الناصرية).

أما فيما يخص التصوف فقد غلبت عليه النزعة السلوكية الأخلاقية، حيث تقل النزعة الفلسفية التي شاعت في التصوف المشرقي، ولعل ذلك يعود إلى ما شاع في الأندلس والمغرب من كراهية العامة وبعض الفقهاء لأهل الفلسفة واضطهادهم لكل من يشتغل بها. يقول ابن سعيد نقلا عن المقري: "كل العلوم لها عندهم – يعني الأندلسيين – حظ واعتناء إلا الفلسفة والتنجيم فإن لها حظا عظيما عند خواصهم، ولا يتظاهرون بها خوف العامة فإنه كلما قيل فلان يقرأ الفلسفة أو يشتغل بالتنجيم أطلقت العامة عليه اسم (زنديق) وقيدت عليه أنفاسه فإن زل في شبهة رجموه بالحجارة أو أحرقوه قبل أن يصل أمره إلى السلطان(35).

الهوامش

(1) الناصرية: مدينة بجاية نسبة إلى مؤسسها ومجددها الناصر بن علناس عام 460هـ.

– ينظر سليمان داود بن يوسف، حلقات من تاريخ المغرب الإسلامي، ص75.

(2) محمد الطمار، تاريخ الأدب الجزائري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ص46.

(3) ينظر الغبريني، عنوان الدراية، ط2، تح رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ص03.

(4) Feraud, histoire des villes de la province de constantine

نقلاً عن الغبريني، عنوان الدراية، ص04.

(5) عثمان الكعاك، موجز التاريخ العام للجزائر، ص273.

(6) ينظر تاريخ ابن خلدون، ج6، ص175.

(7) ينظر عنوان الدراية، ص04.

(8) ينظر المرجع نفسه، ص6، 7.

(9) تاريخ ابن خلدون، ج6، ص375.

(10) محمد الطمار، تاريخ الأدب الجزائري، ص64.

(11) سليمان داود بن يوسف، حلقات من تاريخ المغرب الإسلامي، ص88.

(12) المرجع نفسه، ص88.

(13) المرجع نفسه، ص89.

(14) عنوان الدراية، ص12.

(15) المرجع نفسه، ص34.

(16) ينظر العربي دحو، الشعر المغربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1994.

(17) محمد الغزي، "الحركة الصوفية في القيروان"، مجلة الحياة الثقافية، ص43.

(18) ينظر أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر1981، ج1، ص79.

(19) النقاوسي البجائي هو شيخ عبد الرحمن الثعالبي الذي درس عليه في بجاية، وأخذ شهرة أكثر من أستاذه.

– ينظر أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص79.

(20) المرجع نفسه، ص81، 82.

(21) عنوان الدراية، ص46.

(22) المرجع نفسه، ص56.

(23) المرجع نفسه، ص60.

(24) المرجع نفسه، ص86، 87.

(25) المرجع نفسه، ص87.

(26) المرجع نفسه، ص88، 89.

(27) المرجع نفسه، ص47.

(28) المرجع نفسه، ص148.

(29) المرجع نفسه، ص88.

(30) المرجع نفسه، ص88.

(31) المرجع نفسه، ص119.

(32) ينظر الجرجاني، التعريفات، درا الفكر، بيروت 1998، ص120.

(33) ديوان الحلاج، ص158.

(34) المقري، نفح الطيب، ج2، ص213.

(35) المرجع نفسه.